على شواطئ الآستانة

ساعة فى متحف (طوب قبو)

للأستاذ كمال ابراهيم

وقصدت إلى دار السلطان ، ومنازل الخلائف من آل عثمان ، وقد أصبحت بما فيها متحف الزائر ، ومُجتلَى الناظر ، ومطاف المتفرج ، بعد ما كانت تطاول السماء فى رفعتها ، وتُصاول الشُّمم فى منعتها ، وكانت فى حِمَى كبطون القلاع ، ومن يحم حولها يوشك أن يقع فى شراك الموت

أجل ، وكانت هذه المغانى التى نطيف بها اليوم ، تفيض بالنعيم ، وتختال فى جلال الملك ، وتزدهى بابهة السلطان ، وكان الزمان قد بسم لها بسمة الاقبال ، ثم أغفى عنها حيناً ، ولكنها إغفاءة اليقظان ، فما لبث بعدها حتى اهتاجت هوائجه ، وانباجت

باعظاً ـ نحو ٣٠ مليون جنيه . غير أن هذه القاعدة الحربية ليست كافية أمام أمة تستعد لفتح آسيا كلها . وانكلترا وحدها لا يمكنها الوقوف فى وجه هذا الخطر الأصفر ، وهى لذلك تسعى للحصول على مساعدة الدول الأخرى ، ويظهر أنه لا بد للوقوف فى وجه الخطر اليابانى من اتفاق بين الدول الأربع : الروسيا وانكلترا وفرنسا والولايات المتحدة . ويقول أحد الصحفيين الروس بهذه المناسبة إن نظام الضمانات المشتركة لأجل السلام لا يجب أن يكون كمظلة يمكن وضعها فى مخزن الحبوب لكى تأكلها الفيران ثم إخراجها لاستعمالها ضد حرارة الشمس ، لأن هذه المظلة متى ما أكلت قماشها الفيران لا يمكن استعمالها للوقاية من حرارة الشمس . والصحفى يؤكد أن روسيا مستعدة للتضحية فى سبيل توطيد السلم ولتأييد الدول فى نزاعها ضد الذين وضعوا مبدأ لهم سياسة الهجوم . وهكذا فان أساس الاتفاق موجود بين انكلترا وروسيا . وسيظهر التاريخ إلى أين تؤدى سياسة اتوسع اليابانى وفى أى مرحلة من سيرها نحو بناء امبراطوريتها الآسيوية ستقفها دول أوربا وأمريكا

(حلب) جورج جرار

بالشر بوائجه ، فأحال حالها ، وأهلك أهلها ، وأباد سلطانها ، وتركها عبرة للمستبر ، وعظة للناظر :

ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحـ

وكانت كجنة الخلد ، موشيّة الأديم ، رفّافة النسيم ، د الظلال ، زهراء ناضرة ، وعرائس القصر فى مقاصيرهن يصورن مباهج الحياة ، واشراق السعادة ، وفتنة الوجود ، ما خطرن فى مطارف وشيهن ، وسرن متثاقلات بحُلّيهن وحُلاه خلت السعادة حيث كُنّ ، تقيم إذا أقمن ، وترحل حيث يرـ من الهيف لو أن الخلاخل صُيرت

لها وُشُحاً جالت عليها الخلا

بها الوحش إلا أنها أوانسٌ قنا الخط ، إلا أن تلك ذو

وجنبات القصر موّاجة بالحشم والعبيد ، والأبو قائمةٌ بالحجاب ، والجميع ناكسة أبصارهم ، عانية رقابهم ، لـ الملك ، ورب الصولجان ، وظل الله على الأرض . .

واليوم ، واهاً لها اليوم ، قد أقفرت من ذويها ، وتسكا ساكنيها ، وأصبحت خبراً يروى ، وكتاباً يقرأ ويطوى كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة م

دخلت إلى تلك القصور المعروفة بـ (طوب قبو) وقد با متحف المتفرجين ، وملهى الزائرين ، يرودون الأبصار فى آ السلطنة الماضية ، ويطوفون بين الأركان الباقية ، ويتقلبون خلفه الخلفاء ، من عروض ومتاع ، وحلل ونفائس ، يقا الداخل عن شمائله ، غرفة السلطان تصانبها أخرى لمجلس وزرائه وقد أبقيتا على ما كانتا عليه ، وفى أعلى المجلس روشنٌ أع لجلالته ، يُشرف منه على جلسائه ، فاذا خرجت منه أفضى با الطريق إلى قصور متفرقة جعل فى كل منها صنف من العروض والأثاث ، واللباس والحلل ، والحلى والشارات ، مما كان ل بيوت السلاطين ، وقد نسقت فى معارضها أبدع تنسيق ، ونمقـ يد الفن أجل تنميق ، وما هى غير نفائس العصور ، وتحف الحيـ ومعجزات الصناعة ، وبوا كير البراعة ، التى أنفق حذقة الصنا فيها حياتهم ، وحبسوا فى تمنمها جهودهم وأوقاتهم ، فجاءـ تخطف الأبصار بروائها ، وتذهل الألباب بأنافتها وزخرفها . .

ينتهى الطائف بعد هذا الى بيوت السلاطين ، وقد أبقى كل

نها على ما كان عليه في عهد من عاش فيه ، وهي متصلة متداخلة ، يفضي بك بعضها إلى بعض ، ويسلمك منها مجاز إلى مجاز ، حتى تضلك السبل ، وتنفذ معك الحيل في تعرف الولج والمخارج ، ولولا دليل معنا خرّيت لعمي علينا القصد ، وأنفقنا الزمن في أخذ ورد

سرت في هذه القصور ، وصور الماضين تمر من أمامي صامتة ناطقة ، فصرت أقيم في كل ركن مشهداً ، ومن كل حجر معبداً ، وفي كل لوح منظراً مخلداً ، حتى توزعتني الصور والرسوم ، وغشيتني الأشباح والطيوف ؛ وازدحمت في خاطري الأخيلة والذكريات ؛ هاهي ذي الآثار الصامتات قد انتصبت لناظري حزينة تتوارى كأشباح الموتى ، وهذه قواعد البيت كأنها بعض قواعد الأهرام ، تفيض بعبر الدهر ، وتنطق بفواتل الزمن ونفاذات القدر كل يوم ، ومن يدري ما تخبئ لها الأيام بعد حين ، وقد أصبحت بين عشية وضحاها كما تراها

عمرت للسرور دهرا فصارت ... للتعزي رباعهم والتأسي
فلها أعين بدموع ... موقفات على الصبابة حبس
ذاك مني وليست الدار داري ... في اقتراب منهم ولا الجنس جنسي

أجل سرت في تلك القصور ، وكأني بمواكب السلاطين الحافلة ، غادية رائحة في أيام الجمع والأعياد ، وكأني بخليفة المسلمين قد خرج من قصره ، في طلعة الخلافة ، وأبهة الملك محفوفا ببطانته ، مرفوفا من رهبته ، تستره عن الناظرين ، صفوف الحجاب ، وهياكل الحرس ، وقامات الشرطة بملابسهم المفوفة ، وأوسمتهم المزخرفة ، ومن ورائهم جماهير الشعب المحتشدة على طوارى الدرب الكبير متدافعة ، وقد استطالت الأعناق إلى اجتلاء تلك الطلعة المباركة ، وأنفاس المصلين تملأ سماء الجامع القديم « أيا صوفيا » بالدعوات الصالحات ، والكلمات الطيبات والابتهال إليه تعالى ، أن يمد في حياة خليفة المسلمين ، وينصره على القوم الكافرين

ويصاقب تلك القصور إلى شط البحر ، جنة لفّاء ، روحاء زهراء ، يخترقها درب عريض ، قامت على جانبيه أشجار فينانة ، وارفة غيدانة ، مبسوطة الأماليد ، ملتفة السواليج ، وقد عقدت فروعها من فوقها سماء من الأوراق ، تزري بزرقة السماء ، حجبت شمسها إلا خيوطاً منها ، فكانت كما قالت بنت زياد في وصف واد :

حللنا دوحه فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
تصد الشمس أنّى واجهتنا ... فتتحجبها وتأذن للنسيم

وذكرت حين سرت هناك غريب اللسان ، قول أبي الطيب في شعب بوان :

ولكن الفتى العربي فيها ... غريب الوجه واليد واللسان
ملاعب جنة لو سار فيها ... سليمان لسار بترجمان

سرت في ذلك الدرب الظليل ، ونواسم البحر الندية تجوس خلال أدواحه ، وتنقلب بين أزهاره وأوراقه ، فعبق شذاها ، وطاب رياها ، تلامس الوجه ، فيتفتح لها الصدر ، وتخلص لها الروح ، أفضي بي السير إلى مسالك تنشعب من ذلك الدرب ، تكتنفها ملاعب وميادين ، ودارات ورحب ، فاذا أمعن السائر في السير بدا له البحر متسع الأفق ، وتزاحمت الآستانة لناظريه متعالية على ضفاف البسفور ، وقد احتضنت الماء ، وعانقت السماء ، فكانت فتنة العالم ، وسحر الوجود . فاذا ما بلغ شط البحر ، وقد شطت بخياله تلك الصور والذكر ، لاح له ذلك التمثال الفخم ، وسط رحبة من الأرض ، لرجل (تركيا) اليوم ، فيعود به هذا المشهد الحديث ، إلى الحقيقة بعد خيال ، وإلى الحاضر بعد غياب ، وإلى الساعة التي هو فيها بعد استغراق طويل

كمال ابراهيم
المدرس في دار المعلمين ببغداد